

الحياة والموت في زهديات أبي العتاهية

إعداد الدكتور: بسام البردان
جامعة دمشق / كلية الآداب الثالثة بدرعا
قسم اللغة العربية

يبدو أن هذا الموضوع مغرٍ للباحث والمتلقي على حدٍ سواء، ولعلّه يكتسب أهميته من جوانب متعددة تغري باختياره، والإقبال على دراسته، فهو موضوع جديد، لم يتناوله باحث من قبل، فيما أعلم⁽¹⁾، كما أن محتواه مهمّ أهمية بالغة للناس أجمعين، إذ يتناول قضية الحياة والموت، التي لا ينفك إنسان عاقل مفكر من التفكير بها، وذكرها، والتفاعل معها، وكذلك فإننا من خلالها نستطيع أن نكشف عن إحساس الشاعر الذاتي بوجوده، وقلقه وخوفه من النهاية التي سيؤول إليها، ثم إن هذه الدراسة ستبين أن الشعر العربي وشعره لم يكونوا مشغولين بمدح الملوك والخلفاء والأمراء فحسب، وإنما كانوا يتأملون في وجودهم، ويفكرون في حياتهم، وموتهم، وغير ذلك من الحقائق والأشياء التي تشتمل عليها الحياة، وهم أيضاً يعبرون عن رؤى النفس البشرية⁽²⁾، وما يواجهها في الكون والحياة، وهذا يقودنا إلى الحكم على أدبنا العربي بأنه أدب سامٍ ملهم، يتشوّف إلى المستقبل، وينظر في صميم الأشياء، ويبحث في لباب حقائقها، معبراً عن تجارب الشعراء الذاتية، على عكس ما يرى بعض الباحثين⁽³⁾.

وعلى هذا الأساس فإن الحاجة تقوى في تناول هذا الموضوع، ودراسته انطلاقاً من النصوص الشعرية، التي أنتجها المبدعون من الشعراء العرب على مرّ العصور؛ ولذا فإنني عدتُ إلى نصوص أبي العتاهية الزهدية، وتأمّلت فيها، فكانت هذه الدراسة المتواضعة.

ولعلّ ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو إكثار أبي العتاهية من ذكر هذه الثنائية (الحياة والموت) في أشعاره الزهدية، وكذلك فإنه قد بدا لي أن الشعراء بعامة يكونون - بمكائهم الروحية والحدسية - أكثر قدرةً على الإحساس بمأساة الحياة والموت، إن صحّ التعبير، وهم أكثر قدرةً على تصوير مصير الإنسان، وما يعاينه من هموم وأحزان خلال مسيرته في هذه الحياة، وهكذا كان أبو العتاهية، إذ اهتم اهتماماً كبيراً بمصير الإنسان، وبيّن جوانب من صراعه القاسي مع

(1) ثمة بحثان يُسمّا بهذا العنوان: (الحياة والموت)، وهما رسالتا ماجستير، أولاهما في جامعة الإسكندرية بمصر، عام 1968م، وهي (الحياة والموت في الشعر الجاهلي)، لمصطفى عبد اللطيف جياووك، وقد نهج فيها منهجاً يقوم على النظر في أغراض شعرية محدّدة، هي الرثاء والحماسة والحكمة، وجعل لكل غرض منها فصلاً خاصاً. أما الرسالة الثانية فهي لمنيف أحمد حميدوش، وعنوانها: (الحياة والموت في شعر الشريف الرضي)، وهي في الجامعة اللبنانية عام 2004م، وقد جعلها في بابين: تحدّث في الأول عن ثقافة الشريف الرضي، وأثرها في شعره، وفي الباب الثاني تناول قصيدة الرثاء عند هذا الشاعر، وقام بتحليلها، وتصنيفها بحسب منزلة المرثي، وبحسب الموضوعات أيضاً، ثم درس الصورة الفنية فيها، فكان - برأيي - غير موفق في الملاءمة بين العنوان ومحتوى البحث. وهاتان الدراستان لم تتناولوا موضوع الحياة والموت على النحو الذي نهجته في هذه الدراسة.

(2) انظر: القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين، ثريا عبد الفتاح ملحس، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت: د.ت، ص 67 وما بعدها.

(3) انظر: الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس: 1975م، ص 103 وما بعدها - والشعر والزمن، جلال الخياط، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، سلسلة الكتب الحديثة (88)، بغداد: 1975م، ص 25 وما بعدها - وقراءة جديدة لشعرنا القديم، صلاح عبد الصبور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة: 1968م، ص 34 وما بعدها - والتفسير النفسي للأدب، د.عز الدين إسماعيل، دار العودة، دار الثقافة، بيروت: د.ت، ص 98 وما بعدها.

الموت في هذه الحياة، وبدأ كأنه فيلسوف يستمد أفكاره ورؤاه من الواقع والحياة⁽¹⁾.

ومن المفيد أن أذكر أن المنهج الذي ستقوم عليه هذه الدراسة هو تتبع ثنائية الحياة والموت في أشعار أبي العتاهية الزهدية، ودراستها وتحليلها، من خلال استنطاق نصوصه الشعرية، واستجلاء ما توحى به، أو تنطوي عليه من إحساس أو رؤية لهذه الثنائية، وإخضاعها للدرس الفني الموضوعي، في سبيل استكشاف محتواها الفكري والنفسي - على حدٍ سواء، ولعلّ من المفيد أيضاً أن أبتين أن ديدن هذه الدراسة هو التعمق في فهم النص، من أجل إدراك أفضل للمفاهيم والأحكام، التي تشكل رؤية الشاعر العميقة، وتصورات الأيكة للموت والحياة.

ويبدو أن ثنائية (الموت والحياة) يتعانق طرفاها، ويتلازمان في الوجود الإنساني على الأرض، إذ إن هذا الإنسان يعيش الموت في الوقت نفسه الذي يعيش فيه الحياة؛ لأن الحياة في حقيقتها سير دائم نحو الموت في طريق التلاشي والانتفاء، كما أن الموت هو الذي يعطي الحياة معناها وأهميتها؛ لأنه يضع لها حداً، وينهيها، فنحن نشعر بقيمة الحياة التي نعيشها؛ لأننا ندرك أن الموت سينهيها ويزيلها، كما أننا نشعر بمعنى الموت وأهميته وقيمتها؛ لأنه يشكل لنا خطراً جسيماً يهدد وجودنا، ويفضي بنا إلى الهلاك. وعلى هذا الأساس فإن هذه الدراسة اتجهت اتجاهاً مماثلاً، إذ تعاقبت فيها القضايا الموضوعية بالقضايا الفنية، في سبيل الوصول إلى ما كان الشاعر يهدف إليه ويراه ويعبر عنه، أو بعبارة أدق، ما كان في شعره من رؤى ومواقف تجاه الموت والحياة.

أولاً- موقف الشاعر من الحياة:

وقف أبو العتاهية في أشعاره الزهدية أمام الحياة وقوفاً متأنيماً، فكانت هي الدنيا، والذهر، والزمان، والأيام، وكان في هذه الوقفة ذاتاً لها، متوجساً خائفاً منها، ناهياً عن الإقبال على ملذاتها، محذراً من الوقوع في غرورها، داعياً إلى التصبر على نوائبها، ومواجهة نكباتها وتقلباتها، وليكن فيما يأتي تفصيل ما أجملت.

1- النهي عن الإقبال على الدنيا والتمسك بنعيمها الزائلة:

يكاد أبو العتاهية لا يفارق هذه الفكرة في أشعاره الزاهدة كلها⁽²⁾، فهو ينهي الإنسان عن عشق الدنيا، ويعلل ذلك بأن الدنيا تجهد بلاء من يعشقها، فتجعله يتذوق المرارة فيها، ويشعر فيها بالتعب والعناء؛ ولذلك فمن الواجب عليه ألا يتخيل في ثيابه الزاهية، وأن يتذكر دائماً أنه مخلوق من الطين والماء، ويبدو أن هذا المعنى أو هذه الفكرة قد تلقفها منه أبو العلاء المعري بعد ما يزيد عن القرنين من الزمان، وصاغها بقلب روحه ونفسه، فجاءت حكمة بالغة، حفظها الناس، وتمثلوا بها على مر العصور وكر الدهور، وهي قوله⁽³⁾:

حَقِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـ أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

سِرْ إِنْ اسْطَغَتْ فِي الهَوَاءِ رُؤَيْدَا لَا اخْتِيَالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ

إن الدنيا عند أبي العتاهية ليست باقية، وليس يخلد من يتمسك بها، ويتعشقها، وهي فانية؛ ولذلك فهو ينهي أخاه

(1) انظر: نظرية الأدب، رنيه ولك، وأوستن وارن، ترجمة: محيي الدين صبحي، ومراجعة: د. حسام الخطيب، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق: د.ت، ص 140 وما بعدها.

(2) انظر: أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، تحقيق: د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ - 1965م، الديوان: الصفحات: 2-3-8-12-25-37-43-49-59-93-95-116-143-166 وغيرها.

(3) ديوان سقط الزند، لأبي العلاء المعري، تحقيق: د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، ط1، بيروت: 1998م، ص50.

الإنسان عن الإقبال عليها، والانخداع بملذاتها، على نحو ما يظهر في قوله⁽¹⁾:
لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِدَارٍ بَقَاءٍ كَفَاكَ بِدَارِ الْمَوْتِ دَارَ فَنَاءٍ

فَلَا تَغْشَقِ الدُّنْيَا أَخِي فَاثْمًا تَرَى عَاشِقَ الدُّنْيَا يُجْهِدُ بَلَاءٍ

حَلَاوَتُهَا مَمْزُوجَةٌ بِمَرَارَةٍ وَرَاحَتُهَا مَمْزُوجَةٌ بِعَمَاءٍ

فَلَا تَمْشِ يَوْمًا فِي ثِيَابٍ مَخِيلَةٍ فَإِنَّكَ مِنْ طِينٍ خُلِفَتْ وَمَاءٍ

ويؤكد أبو العتاهية فكرته التي تركز على أن الإنسان مخلوق من الماء والتراب؛ ولذلك فهو ينهى الناس عن الفخر بأحسابهم وأنسابهم، فلا تفاخر بينهم طالما أنهم جميعاً من طينة واحدة، ولعلّ هذه الفكرة التي تدور في فكر الشاعر ووجدانه، تشير إشارة واضحة إلى فكرة المساواة بين جميع البشر، فالناس جميعاً متساوون في خلقهم، ولا فرق بينهم إلا في العمل، يقول أبو العتاهية⁽²⁾:

لَا يَفْخُرُ النَّاسُ بِالنَّسَابِ فَإِنَّما النَّاسُ تُرَابٌ وَمَا

ويبدو أن إلحاحه على هذه الفكرة مستمد من شعوره بالنقص؛ لأنه وضع النسب، قليل الحسب، وهذا ما ذهب إليه أحد دارسيه، إذ يقول: " وإذا ذكرنا أن أبا العتاهية نشأ فقيراً محروماً، يحسّ بالضعف والنقص، أدركنا مصدر غلوائه في تحقير الدنيا وذمها ... إنه يسخر بيانه القوي المعبر الطيع من أجل إرهابهم، وتشخيص آلام الحياة وشقاها وتفاهتها.."⁽³⁾

2- الحياة مليئة بالهموم والأحزان، وهي تؤدّب أهلها:

يرى أبو العتاهية - بعد طول تفكير - أن الدنيا ليس فيها ما هو جديد، فالجديد فيها تصيّر قديماً بالياً، وأنها تدور بآناسها، فلا تثبت على حال، بينما ينشغل أهلها بالسعي وراء شؤون حياتهم؛ ولذلك كله فإن هذه الدنيا تنغص عليهم حياتهم، وتبلوهم بالمصائب، وتفجعهم بالنوائب، وتركهم عائمين في بحر من الهموم والأحزان، فهو يقول⁽⁴⁾:

فَكُنْزُ فِي الدُّنْيَا وَجِدَّتْهَا فَإِذَا جَمِيعُ جَدِيدِهَا يَنْبَلَى

وَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا عَقِبَ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ قَلَمًا تَبَقَى

وَبَلَوْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا فَإِذَا كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ يَسْعَى

(1) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 2-3.

(2) المصدر السابق: ص 8. وما: أصلها: ماء، خففت فيها الهمزة.

(3) أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي، أسامة عانوتي، منشورات المكتبة الأهلية، ط1، بيروت: 1962م، ص 123-124.

(4) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 9.

مَا زَالَتِ الدُّنْيَا مُنْقَصَةً لَمْ يَخْلُ صَاحِبُهَا مِنَ الْبَلَاةِ

دَارَ الْفَجَائِعِ وَالْهُمُومِ وَدَا رُ الْبَسِّ وَالْأَحْزَانِ وَالشُّكُومِ

إن أبا العتاهية يصوّر الحياة تصويراً قائماً متشامماً، إذ يجعل من يعيشها يشعر بالتعب والإعياء، ويسيطر عليه الإرهاق، من كثرة الفجائع والهموم والأحزان التي تحيط به، لدرجة تجعل لسان حاله يقول: "أعتقد أنني عشت حياتي بطريقة أرهقتني، حتى أصبحت أحس أنني لا أسير مع عمري، ولكنني أحمله كصخرة فوق رأسي!"⁽¹⁾.

والحياة عند أبي العتاهية هي (الدنيا)، و(الزمن أو الزمان)، على نحو ما ذكرت في موطن سابق؛ ولذلك فهو يرى أن هذه الحياة تؤدّب أهلها، من خلال المصائب التي تحملها إليهم، وتركهم يتقلبون في خضم الهموم والأحزان، إنها توفظهم من غفلاتهم، وتنبههم إلى مصيرهم، لكنّ الناس في هذه الدنيا لا ينتبهون، وعن مصيرهم الحتمي يتغافلون، فتراهم يتنافسون ويتنازعون من أجل أعراض الدنيا الزائلة، وهم يتعبون أنفسهم في سعيهم نحو الغنى والثراء، ويتأملون من الدهر ما ليس يعطيه، على نحو ما يظهر في قوله⁽²⁾:

إِنَّ الزَّمَانَ لِأَهْلِهِ لَمْؤَدِّبٌ بِصُرُوفِهِ وَمُيَقِّظٌ وَمُنْبِّهٌ

وَلَقَدْ أَرَاكَ تَعَبْتَ فِي طَلَبِ الْغِنَى شَرَّهَا وَلَيْسَ يَنَالُهُ مَنْ يَشْرَهُ

وَأَرَاكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ مُنَازِعٌ وَمُنَافِسٌ وَمُنَازِحٌ وَمُتَهَقِّعٌ

ويلخّ أبو العتاهية على هذه الفكرة إلحاحاً بيتاً، فهو يرى أن الزمان حكيم بليغ، وهو كالشاعر أو الخطيب، الذي يحاول أن يؤدّب سامعيه، من خلال ما يقدم لهم من مواعظ وعبر، وما يأتي به من صروف وتقلّبات، وما يخلفه في أهله من هموم وأحزان، وكذلك فإنه يرى أن الناس في هذه الحياة لا ينالون منها إلا الهمّ والغمّ والتّصب، وأنهم معها في بلاء وكّد واكتئاب، فأيام العمر مقسومة بين السخط والرضا، وبين هاتين الحالتين يكون مصير الإنسان متأرجح بين الوعد والوعيد، وبين الأمل والقنوط⁽³⁾.

إن هذه النظرة التشاؤمية إلى الحياة تجعل صاحبها يهجر ملذّات الدنيا، ويستنكر مباحجها، ويرى جبالها قبيحاً، وتضيق نفسه بجيائه وما يعتورها من هموم وآلام وأحزان، لكن الأمل هو الذي يبعث في الإنسان الإقبال على الحياة، وصدق الطغرائي إذ يقول⁽⁴⁾:

أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمْوَالِ أَزْقِيَهَا مَا أَضِيقُ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ

الْأَمَلِ

(1) بين الحياة والموت، كامل الشناوي، دار المعارف بمصر، د.ت، ص 47.

(2) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 409.

(3) انظر: المصدر السابق: الصفحات: 27-33-35-40-69 وغيرها.

(4) ديوان الطغرائي، تحقيق: علي جواد الطاهر، ودحيى الجبوري، دار القلم، ط2، الكويت: 1983م، ص 306.

3- عدم الغرور بالحياة، والنهي عن تعظيمها:

لعل من أهم القضايا التي جاء بها الإسلام مسؤولية الحياة، فالإنسان مسؤول عن حياته، بما فيها من مقومات وإمكانات ومتع وملذات، وقد صرح القرآن بذلك في قوله Y: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُنْذِرَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)⁽¹⁾، وكذلك في قوله I: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)⁽²⁾، ويبدو أن هذه المسؤولية التي أوكّلها الخالق إلى المخلوق، قد فرضت على الإنسان أن يعيش حياته بإيجابية ورضا، فيندفع في إعمارها، وبينها بناءً يرتضيه، لكن أبا العتاهية يقف موقفاً مخالفاً، فهو - في شعره الزاهد - يحث الناس على عدم الغرور بالدنيا، وينقّهم من بناءها وإعمارها، وليس أدل على ذلك من صيحته التي يطلقها، مخاطباً فيها الناس أجمعين، والتي فيها يقول⁽³⁾:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ

لِمَنْ تَبْنِي وَتَحْنُ إِلَى ثَرَابِ نَصِيرُ كَمَا خُلِقْنَا مِنْ ثَرَابِ

إن أبا العتاهية في موقفه هذا يكاد يكون سلبياً، فالحياة عنده لا تستحق من أهلها أن يعمروها، والدنيا ذاهبة لا محالة؛ ولهذا وذاك يرى أنّ من الواجب على الناس أن يهجروها، وأن ينشغلوا بالآخرة، وأظنه نسي القول المأثور: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"، فأبو العتاهية لا يقيم هذه المعادلة، ولا يؤمن بها، وإنما يريد من الناس أن يتركوا بناء الدنيا وإعمارها، وأن يتقربوا الموت الذي يبيد كل شيء في هذه الحياة، ويجزّيه تخريباً. وهاهو يستنكر فعل الذين يأمنون الأيام، ويستطيون العيش في هذه الدنيا، ويتعجب تعجباً شديداً ممن يريدون البقاء فيها، ويتمسكون بسبل الحياة، وهو يرى أن المصائب لاتنفك تكيد لهم، وأن أمنياتهم لن تتحقق، وآمالهم ستتحطم على صخور الواقع والحياة، فهو يقول مخاطباً الإنسان⁽⁴⁾:

تُرِيدُ بَقَاءً وَالْحُطُوبُ تَكِيدُ وَلَيْسَ الْمُنَى لِلْمَرْءِ كَيْفَ يُرِيدُ

وَمَنْ يَأْمَنُ الْأَيَّامَ أَمَا اتَّسَاعُهَا فَخَبْلٌ وَأَمَا ضِيقُهَا فَشَدِيدٌ

وَمِنْ حَبِّ الدُّنْيَا يَقِينُكَ بِالْفَنَاءِ وَأَنْتَ فِيهَا لِلْبَقَاءِ مُرِيدٌ

ويبدو أن روح الإنسان هي التي تشدّه إلى الحياة، هذه الروح التي هي "شيء مختلف تماماً، إنها قوام مستقلّ، وتأتي من عالم أنواعها المتجانسة، وهو عالم مختلف عن القسم الذي تنتمي إليه الأرض ... وليس للروح أي شأن بالفكر الدنيوي" على حدّ تعبير ريتشارد شتاينباخ⁽⁵⁾، وأبو العتاهية يخاطب الإنسان صاحب هذه الروح، ويقول له: إنه مرتّين في هذه الحياة، ومأسور فيها لتعاقب الليل والنهار، على الرغم من أن الموت يترصّده في اختلافها، آناء الليل وأطراف

(1) سورة الملك: الآية 2.

(2) سورة الإسراء: الآية 36.

(3) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 33.

(4) المصدر السابق: ص 126-127.

(5) معنى الحياة والموت، ريتشارد شتاينباخ، ترجمة: هدى موسى، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سورية، اللاذقية: 1990م، ص9.

النهار؛ ولذا فعلى المرء أن يعيش حياته ساعة بساعة، وألا يدفعه الأمل إلى التمسك في الدنيا، والغرور بها، وبما فيها من ملذات، فهي موليّة، وهذا الأمر يعرفه من له خبرة بالحياة وتقلباتها، فهو يقول⁽¹⁾:

يَا صَاحِبَ الرُّوحِ ذِي الْأَنْفَاسِ فِي بَدَنِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مُزْنَنٍ

لَقَلَّمَا يَخْطُطَاكَ اخْتِلَافُهُمَا حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالبَدَنِ

وَأَتَمَّا الْمَرْءَ فِي الدُّنْيَا بِسَاعَتِهِ سَائِلُ بِذَلِكَ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالزَّمَنِ

أَلَسْتَ يَا ذَا تَرَى الدُّنْيَا مُوَلِّيَّةً فَمَا يُغْرِكَ فِيهَا مِنْ هَنٍ وَهَنِ

وتدور هذه الفكرة كثيراً في زهديات أبي العتاهية، فهو يؤكد أن الزمان يغرّ الإنسان، ويذيقه المكروه من مصائبه ونكباته، وأن الدنيا تحير من يحبها، ويقبل عليها؛ لأنها دنيّة، تورث التضامن بين الناس، وتتركهم أعداء متصارعين⁽²⁾. أما تعظيم الدنيا فإن أبا العتاهية يرفضه، وينهى عنه؛ لأنه يراها صغيرة حقيرة، لا تستحق من أهلها هذا التعظيم والإجلال، فهو يقول⁽³⁾:

لَا تُعْظِمِ الدُّنْيَا فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِيهَا صَغِيرٌ لَوْ عَلِمْتَ حَقِيرُ

وهو يرى أن الدنيا مهما سما بها أهلها، فإنها ستهوي بهم إلى أسفل الدرجات؛ لأنها بَرَاقَة خداعة، ولا تستحق منهم أي تعظيم أو اهتمام، ويبدو أنه اتخذ هذا الموقف تمثلاً لقوله Ψ : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)⁽⁴⁾، على نحو ما يظهر في قوله⁽⁵⁾:

رَأَيْتُ بَنِي الدُّنْيَا إِذَا مَا سَمَوْا بِهَا هَوَتْ بِهِم الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ مَا سَمَوْا

4- التّصَبُّرُ والتَّعَزُّيُّ والالتجاء إلى الله:

الحياة البشرية حافلة بالكثير من ظواهر التعب والألم والضييق والمعاناة، وهذه الأشياء التي يواجهها الإنسان تدفعه إلى التّصَبُّر عليها؛ من أجل أن تستمر الحياة، والإنسان في الوقت ذاته يكون مستعداً للتضحية بأعلى ما يملك، في سبيل تحقيق ما يصبو إليه؛ ولذلك يجد نفسه مرغماً على مواجهة مصاعب الحياة ومتاعبها، صابراً عليها، متعزّياً بما يحققه من إنجازات، وما يصل إليه من طموحات.

ويبدو أن أبا العتاهية كان مدركاً لهذه الحقيقة؛ ولذلك فإنه دعا الإنسان إلى الصبر على المصائب التي يأتي بها الزمان، وحثّه على التجلّد، وطلب إليه التعزّي بما حصل مع رسولنا الكريم محمد ρ ، وأن يجعل ما يصيبه في كفة، وما

(1) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 397-398.

(2) انظر: المصدر نفسه: الصفحات: 400-416-428-431-433-434.

(3) المصدر السابق: ص 143.

(4) سورة آل عمران: الآية 185.

(5) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 429.

أصاب الرسول الكريم في كفة، ويوازن بين الحالين، فإنه سيجد أن مصيبتَه أهون بكثير مما أصاب النبي عليه الصلاة والسلام، ولعلَّ أبا العتاهية استمدَّ هذه الفكرة الأخيرة من المقولات الشعبية، إذ يقول الناس: "من رأى مصائب غيره هانت عليه مصيبته"، يقول أبو العتاهية⁽¹⁾:

اضْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجْلِدْ وَاغْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحْلِدٍ

أَوْ مَا تَرَى أَنَّ الْمَصَائِبَ جَمَّةٌ وَتَرَى الْمَنِيَّةَ لِلْعَبَادِ بِمَرْصِدٍ

مَنْ لَمْ يُصَبْ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيبَةٍ؟ هَذَا سَبِيلُ لَسْتُ فِيهِ بِأَوْحِدٍ

وَإِذَا ذُكِرَتْ مُحَمَّداً بِمَصَابِيهِ فَادْكُرْ مُصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

ويحثُّ أبو العتاهية حثّاً قوياً على التصبُّر والاحتساب، فهو ينفى قدرة بني البشر - على مغالبة الشهوات والمغريات، إن لم يكن يعدُّ الإنسان لها العدة الملائمة، وليست تلك العدة سوى الصبر والاحتساب، كما يرى أن المصائب مهما عظمت وجلَّت، فإنها تهون عند ارتجاع الثواب والأجر، ويبدو أنه - في هذه الأفكار - متأثر تأثراً واضحاً بما جاء في القرآن الكريم، ومنه قوله I⁽²⁾: (وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بَشْيَاءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (157)).

إن أبا العتاهية يقدِّم خلاصة تجربته في هذه الحياة، فيخاطب الإنسان ناصحاً ومنذراً في الوقت نفسه من الأخطار المحدقة بالإنسان إن لم يكن صبوراً محتسباً منيباً إلى الله Y، فهو يقول⁽³⁾:

وَلَسْتُ بِغَالِبِ الشَّهَوَاتِ حَتَّى تُعِدَّ لَهُنَّ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا

فَكُلُّ مُصِيبَةٍ عَظَمَتْ وَجَلَّتْ تَخْفُ إِذَا رَجَوْتَ لَهَا ثَوَابًا

ويرى أبو العتاهية أن على الإنسان أن يصبر على حوادث الدنيا التي تغتمه وتتعبه، ويؤكد حقيقة مفادها أن الناس لا يمكن أن يكونوا جميعاً راضين عن حياتهم، وليسوا جميعاً معجبين بكل ما تأتي به الأيام؛ ولذلك فإن هذه الأيام تلعب بالإنسان لعباً، إذ إنها تعطيه كثيراً حيناً، وتسلبه كثيراً حيناً آخر، وإذا بقي الإنسان يتعجب من صروف الزمن، فإن تعجبه سيطول كثيراً، ويبدو أن الشاعر في هذه الرؤية يلتقي مع أحد الباحثين المحدثين الذي يقول: "تقسيمات الزمن لعبة مسلية ابتدعها أناس ضائعون؛ لوضع علامات مميزة على الطريق التي تعبرهم بجيادية مقلقة وإهمال غريب، هي محطات على خط قطار لا يتوقف، يصعد من يصعد، ويسقط من يسقط، وهو يابس رأسه، رافع أنفه، ماضٍ في غاية

(1) المصدر السابق: ص 110-111.

(2) سورة البقرة: الآيات: 155-157.

(3) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 20.

مجهولة وإلى وجهة غير معلومة، فالثانية والدقيقة والساعة واليوم والشهر والفصل والسنة والعقد والقرن، طريقة مبتكرة لبث روح الحياة في جسد هذا العابر البليد العنيد! ⁽¹⁾. يقول أبو العتاهية ⁽²⁾:

فَاضِرٌ عَلَى الدُّنْيَا وَطَوَّلَ غُومَهَا مَا كُلُّ مَنْ فِيهَا يَرَى مَا يُعْجِبُهُ

مَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تَلْعَبُ بِالْقَتَى طَوْرًا تُخَوِّلُهُ وَطَوْرًا تَسْلُبُهُ

مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَعَجِّبًا مِنْ كُلِّ مَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ طَالَ تَعَجُّبُهُ

ولا ينفك أبو العتاهية من الحث على الصبر وتحمل مصاعب الحياة، فهو يطلب إلى الإنسان أن يهتف على نفسه مضايق الدنيا وشدائدها، وأن يرجو لها التنفيس والانفراج ⁽³⁾، ويبدو أنه في هذه الفكرة يتناص مع ما قاله الشافعي في الموضوع نفسه، إذ يقول ⁽⁴⁾:

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ وَطِبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ

وَلَا تَجْرِحْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فَمَا لِخَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ

وَلَا حُزْنَ يَزِيدُ وَلَا سُرُورَ وَلَا بُؤْسَ عَلَيْكَ وَلَا رَحَاءُ

أما اللجوء إلى الله Ψ فقد تناوله أبو العتاهية في كثير من أشعاره الزاهدة، وكان في ذلك واعظاً، فهو يحث الإنسان على الالتجاء إلى ربه، واليأس من إعانة الناس له ⁽⁵⁾، ويشجعه على تقوى الله Y ⁽⁶⁾، ويبين له أن الدنيا دار متاع ولهو وغرور ⁽⁷⁾، ويبدو أنه يستمد هذه الفكرة من القرآن الكريم، وذلك في قوله I : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ) ⁽⁸⁾.

هكذا كان موقف أبي العتاهية من الحياة، إذ نهى عن الإقبال على الدنيا وتعظيمها، ووصفها بأنها مليئة بالهموم والأحزان، ودعا إلى عدم الغرور بها، والصبر على حوادثها ونكباتها، واللجوء في ذلك كله إلى الله Y . ولكن كيف كان موقفه من الموت؟

ثانياً- موقف الشاعر من الموت:

(1) هامش الحياة .. هامش الموت، غسان كامل ونوس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1991م، ص: 6-7.

(2) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص47.

(3) انظر: المصدر نفسه: ص95.

(4) ديوان الشافعي، تحقيق: يوسف علي بديوي، مكتبة دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، دمشق: 2000م، ص23.

(5) انظر: أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص121.

(6) انظر: المصدر نفسه: ص128.

(7) انظر: المصدر نفسه: ص170.

(8) سورة آل عمران: الآية 185.

"لا محرب لأحد من الموت، فالموت له صفة (كونية)، إن صح التعبير، ورغم ذلك فلكل موت مغزى خاص، وله أيضاً تأثيره المميز على الآخرين.. فنظرنا للموت عامل حاسم في النهج الذي نحيا فيه حياتنا الخاصة"⁽¹⁾. هذه الكلمات عبّرت الكاتبة الأسترالية "سيلفي دانيال بيدو" عن تجربتها في قراءة الكتب الروحانية، لكن القرطبي يقول عن الموت: "قال العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينها، وانتقال من دار إلى أخرى، وهو من أعظم المصائب"⁽²⁾، أما جورج غريب فيقول: "ليس على الموت سلطان، فالذين كانوا قبلنا رحلوا، ونحن في إثرهم راحلون، إنها نهاية كل حي، فالعيش حلم يمرّ، وأوله التراب، وآخره التراب، وجميعنا أمام الموت سواء، لا قوي، ولا ضعيف، لا غني، ولا فقير، المهم أن نجعل من العمل الصالح سبيلاً إلى الخلاص"⁽³⁾. تلك هي آراء بعض الباحثين في الموت، فكيف كانت رؤية أبي العتاهية له؟

1- التخويف من الموت والتذكير الدائم به:

يقف أبو العتاهية من الموت موقفاً فلسفياً متأملاً، وهذا التأمل الفلسفي عند الإنسان عملية متصلة وفعل لا ينقطع، على حدّ تعبير أحد الباحثين⁽⁴⁾، ويبدو أن أبا العتاهية قد أكثر من الوقوف عند هذا الجانب المخيف من ثنائية (الحياة والموت)؛ ولذلك فإن أحد الباحثين المحدثين يسمّيه "شاعر الموت" في الأقدمين، على غرار تسمية الشاعر الإنكليزي "كيتس" شاعر الموت في المحدثين⁽⁵⁾، وأول نظرة ينظرها أبو العتاهية إلى الموت تتمثل في حتمية على بني البشر، وأنه لا مفرّ منه، ولا نجاة من غصصه وشهقاته، فهو يرى أن الموت يأتي على المرء، فينهي حياته، ويقضي عليها، على الرغم من أنه يقدر في نفسه تحقيق أمور كثيرة، ولكن قضاء الله بالموت يأبى عليه أن يتمّ أمله وتقديره، على نحو ما يظهر في قوله⁽⁶⁾:

أَمَّا مِنَ الْمَوْتِ لِحَيٍّ نَجَا كُلُّ امْرِئٍ آتٍ عَلَيْهِ الْقَتَا

تَبَارَكَ اللَّهُ وَسُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ وَاقْتَصَا

يُقَدِّرُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا وَيَأْبَاهُ عَلَيْهِ الْقَضَا

ويخشى أبو العتاهية الموت، ويفرق لذكره؛ ولذلك فهو لا ينفكّ يذكر الناس به، ويخوفهم من أهواله وسكراته، وربما أنه يكثر من ذلك؛ ليعزي نفسه، ويدفن بخوفهم خوفه المقيم فيها، فهذا هو يرسخ فكرته السابقة التي تقضي -بحتمية الموت، وأنه شرّ لا بدّ منه، ويمضي في ترهيب سامعه منه، وتخويفه من مصيره المحتوم، ويجذّره من الماضي قدماً في ركوب أهوائه واتباع شهواته، ويقرّ بعدها حقيقة وهي أن عمى الإنسان يكون في بصيرته وليس في بصره، فهو يقول⁽⁷⁾:

(1) كشف النقاب عن لغز الحياة والموت، سيلفي دانيال بيدو، ترجمة: نويل عبد الأحد، مراجعة: عيسى بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت: 2004م، ص 91.

(2) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، القدس للتجارة، القاهرة: 2008م، ص 6.

(3) أبو العتاهية في زهدياته، جورج غريب، دار الثقافة، ط1، بيروت: 1985م، ص 21.

(4) انظر: مشكلة الفلسفة، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة: د. ت، سلسلة مشكلات فلسفية (4)، ص 18.

(5) انظر: أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت: 1987م، ص 141-142.

(6) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 47.

(7) المصدر السابق: ص 22-23.

هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فَلَا يَلْعَبُ بِكَ الْأَمَلُ الْكَذُوبُ
وَكَيْفَ تُرِيدُ أَنْ تُدْعَى حَكِيماً وَأَنْتَ لِكُلِّ مَا تَهْوَى رَكُوبُ
وَمَا تَعْمَى الْعُيُونُ عَنِ الْخَطَايَا وَلَكِنْ إِنَّمَا تَعْمَى الْقُلُوبُ

وتدور فكرة حتمية الموت دوراناً كبيراً في أشعار أبي العتاهية الزهدية⁽¹⁾، ويبدو أنه متأثر تأثراً شديداً بما ورد في القرآن الكريم عن الموت، إذ يقول I: (أَيُّمَّا تَكُونُوا يُذَرِّكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)⁽²⁾.

ويرى أبو العتاهية أن الموت ظاهرة مشتركة بين جميع البشر، وأنه يساوي بين الملك والمملوك، وبين الوزير والغفير، فهم جميعاً يسلكون المسلك نفسه، بلا تمييز أو محاباة أو مراعاة، وربما أن هذا الموقف لأبي العتاهية نابع من إحساسه بوضاعة نسبه، ودنوّ منزلته الاجتماعية، فهو بهذه الرؤية يصل إلى ما يصبو إليه من المساواة بينه وبين الأشراف ممن يعيشون في عصره، فهو يقول⁽³⁾:

الْمَوْتُ بَيْنَ الْخَلْقِ مُشْتَرِكٌ لَا سُوقَةَ يَتَّقَى وَلَا مَلِكٌ
مَا ضَرَّ أَصْحَابَ الْقَلِيلِ وَمَا أَغْنَى عَنِ الْأَمْلاكِ مَا مَلَكَوا
لَمْ يَخْتَلِفْ فِي الْمَوْتِ مَنْلُكُهُمْ لَا بَلَّ سَبِيلاً وَاجِداً سَلَكَوا

وهكذا فإن أبا العتاهية رأى في الموت ما رآه، وخوَّف الناس منه ما أمكنه ذلك، وذكرهم به تذكيراً مفزعاً، وصرَّح أخيراً أنه يكره الموت ويحب الحياة؛ لأن هذا الموت هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ولا سبيل إلى التملُّص منه والهروب من دربه، فهو يقول⁽⁴⁾:

وَإِنِّي لِمَعْنٍ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَالْبَلَى وَيُعْجِبُنِي رَوْحُ الْحَيَاةِ وَطِينُهَا
أَيَّا هَادِمِ اللَّذَاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ تُحَاذِرُ نَفْسِي - مِنْكَ مَا سَيُصِيبُهَا

2- الشيخوخة والمرض وشبح الموت:

الشعراء الذين تحدثوا عن الشيب والشباب في تاريخ أدبنا العربي كثيرون كثرة ظاهرة، وأبو العتاهية واحد منهم، فقد بكى هذا الشاعر على شبابه الذي سلبه منه الزمن، وتأسف عليه تأسفاً شديداً، ولكن ذلك كله لم يغنه عن الإحساس بضعف الهمة، وانكسار النفس، والشعور بدتو الأجل؛ لأن الشيب قد اشتعل برأسه ولحييه، فجعله ذلك

(1) انظر المصدر نفسه: ص 47-64-74-141-200-373-414.

(2) سورة النساء: الآية 78.

(3) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، الديوان: ص 267-268.

(4) المصدر نفسه: ص 48.

يتننى أن يعود إليه الشباب، وصارت هذه الأمنية حناً خالداً، تردده الألسنة على مرّ الزمان، فهو يقول⁽¹⁾:

بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعٍ عَيْنِي فَلَمْ يُفْنِ الْبُكَاءُ وَلَا التَّحْيِبُ

فَيَا أَسْفَا أَسِفْتُ عَلَى شَبَابٍ نَعَاهُ الشَّيْبُ وَالرَّأْسُ الْخَضِيبُ

عَرِنْتُ مِنَ الشَّبَابِ وَكَانَ عَضّاً كَمَا يَغْرَى مِنَ الْوَرَقِ الْقَضِيبُ

فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يُعُودُ يَوْمًا فَأُخِرُهُ بِمَا صَنَعَ الْمَشِيبُ

ويبدو أن أبا العتاهية كان يرى في الشيب نذيراً للهلاك، وناعياً إلى الموت⁽²⁾، فهو ينذر صاحبه بالموت والهلاك، ومن ذلك قوله⁽³⁾:

قَلْبَ الزَّمَانِ سَوَادَ رَأْسِكَ أَيْضًا وَنَعَاكَ جِسْمُكَ رِقَّةً وَتَقَبُّضًا

ويقزع أبو العتاهية من الموت فرعاً شديداً، وبخافه خوفاً كبيراً، فهو يشعر أن شبح الموت يطارده في كل حين، ويتمثل له وجهه في كل ما يحيط به؛ ولذلك فهو يذكره كثيراً، ويصوّر أهواله وآفاته، وغصصه وسكراته، وهو يبيّن أن الموت ينقص عليه حياته، ويسلب صفاءها، فيجعله يشعر بالانزعاج الشديد، على نحو ما يظهر في قوله⁽⁴⁾:

عَلِمِي بِأَيِّ أَذْوَقُ الْمَوْتَ نَقْصَ لِي طِيبَ الْحَيَاةِ فَمَا تَصِفُو الْحَيَاةَ لِيَا

إِنَّ الرِّجِيلَ عَنِ الدُّنْيَا لِيُزْعِجَنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ رَائِحًا بِي كَانَ مُعْتَدِيَا

وهاهو يرى شبح الموت يطارده صباح مساء، ويهجم على حياته، فيقتضي- عليها؛ ولذلك فإنه يراه فظيماً، تفرق منه نفسه، وتذهب به روحه، فهو يقول⁽⁵⁾:

تَلْهُو وَلِلْمَوْتِ مُمَسَاتَا وَمُضَبَحَاتَا مَنْ لَمْ يُصْبِحْهُ وَجْهُ الْمَوْتِ مَسَاءُ

مَا أَقْرَبَ الْمَوْتَ فِي الدُّنْيَا وَأَفْظَعَهُ! وَمَا أَمَرُّ جَنَى الدُّنْيَا وَأَخْلَاهُ!

أما المرض والعجز فيجعلان أبا العتاهية يشعر بدنو الأجل، فيهرع إلى الاستغفار والإنابة إلى الله الرؤوف الرحيم، ففي لحظة العجز يلتجئ الإنسان إلى ربه، طالباً عفوه، راجياً منه الصّبح والغفران، فهاهو يقول في مرضه الذي

(1) المصدر السابق: ص32.

(2) انظر: المصدر نفسه: ص 37-45-192-281-282-415-421.

(3) المصدر نفسه: ص201.

(4) المصدر السابق: ص432-433.

(5) المصدر نفسه: ص420.

مات فيه⁽¹⁾:

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقَرَّرٌ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
وَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي وَعَفْوُكَ إِن عَفَوْتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
فَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْبِرَائَا وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ وَمَنْ

3- خراب الديار:

ينظر أبو العتاهية إلى الموت على أنه قوة محطمة للحياة، مخربة للديار، قاهرة للناس أجمعين، وهو يتساءل عن مصير الأقوام السالفين، الذين عمروا البلاد، وحكموا العباد، وأسسوا لأنفسهم حضارات عريقة، لم يتمكن من محوها عوامل الزمن وتقلباته، وهو يبين أن هؤلاء الناس قد طواهم الموت، وأفنى حياتهم، وقوض بنيانهم، وخرّب ديارهم التي أمست خلواً منهم⁽²⁾.

ويبدو أن صيحته الكبرى في هذا الجانب تمثلت في قصيدته المشهورة التي يخاطب بها بني البشر، فهو يبين أنّ توالدهم وتكاثرهم هو للموت والفناء، وأن ما يشيدونه من صروح وبنان هو للدمار والخراب، فكلهم ذاهبون في طريق الموت والفناء، وكلهم سيعير إلى أصله الذي أنشئ منه، وهو التراب، فالموت لا مفرّ منه ولا مناص، لكنهم مغرورون بهذه الدنيا الفانية، يتعللون بآمالها الكاذبة، وينغمسون في مباحها الخداعة، فهو يقول⁽³⁾:

لَبُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ
لَمَنْ تَبَنِي وَتَحَنَّنْ إِلَى ثَرَابٍ نَصِيرُكُمْ خُلِقْنَا مِنْ ثَرَابٍ
أَلَا يَا مَوْتُ لَمْ أَرِ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ فَلَا تَحِيْفُ وَلَا تُحَايِي

ويرى أبو العتاهية أن الموت يمزق الناس تمزيقاً، ويشتت شملهم، ويفرق جمعهم، وأنه يقضي- على أمانهم، ويجعل نساءهم يبكينهم بكاء حاراً، وذلك كله نتيجة حتمية للموت والفناء، وثمره طبيعية للحياة البائسة الغادرة، فدهية الموت أشدّ وأقوى ما يصيب الإنسان في هذه الحياة، على نحو ما يظهر في قوله⁽⁴⁾:

أَبَى الْمَوْتُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِمَنْ نَوَى مِنْ الْخَلْقِ طَرّاً حَيْثُمَا كَانَ لَا قِيَا
حَسَمْتُ الْمُنَى يَا مَوْتُ حَسْماً مُبَرَّحاً وَعَلَّمْتَ يَا مَوْتُ الْبُكَاءَ الْبَوَاكِيا

(1) المصدر نفسه: ص 375-376.

(2) انظر: المصدر السابق: ص 377-378-382-405، وغيرها.

(3) المصدر نفسه: ص 33.

(4) المصدر السابق: ص 434.

وَمَزَقْتَنِي يَا مَوْتُ كُلَّ مُمَزَّقٍ وَعَرَفْتَنِي يَا مَوْتُ مِنْكَ الدَّوَاهِيَا

وتدور فكرة خلو اليلار من أهلها، وخرابها، وتقويض بنيانها، دوراناً كثيراً في زهديات أبي العتاهية، فمن تنبيهه بني البشر إلى أن مصير ما يبنونه إلى الزوال والخراب والدمار، إلى تقريره أن الموت يترك الدور يباباً خراباً، إذ يجعل الأسرة والمنابر والساكر خالية من أهلها وأصحابها، فيصيبها الخراب والدمار⁽¹⁾.

4- الحكم والوصايا والوعظ والإرشاد:

سبق لي أن قلت: إن أبا العتاهية وقف وقفة تأملية فلسفية أمام الموت والحياة، ومن الطبيعي أن تولّد هذه النظرة الفلسفية عند الشاعر حكمة بالغة، يصوغها العقل، وتعرّزها التجربة، فتخرج ناضجة مكتملة، تصلح أن تكون وصية يوصي بها على مرّ الزمان، وهذا ما كان عند أبي العتاهية، فقد أورد في زهدياته حكماً كثيرة جميلة، أوصى بها الناس، ووعظهم وأرشدهم من خلالها إلى اتباع الطريق القويم؛ ولهذا فإن أغلب دارسيه رأوا أنه قد أكثر من الحكمة في أشعاره الزهدية إكثاراً بيتاً⁽²⁾.

فهاهو يصرخ في وجه من شغلته الدنيا ببناؤها وعمارها، ويخبره بأن ما بينه لن يكون له، وأن ما يعمره سيكون لغيره، ويوصيه بالصبر واتباع البر، وكثرة النظر والتفكير في أحوال هذه الدنيا، والاعتبار مما تأتي به الأيام، على نحو ما يظهر في قوله⁽³⁾:

فِيَا بَاثِي الدُّنْيَا لِعَيْرِكَ تَبَتَّنِي وَيَا عَامِرِ الدُّنْيَا لِعَيْرِكَ تَعْمُرُ

وَمَا لَكَ إِلَّا الصَّبْرُ وَالْبِرُّ عُدَّةً وَالْأَعْيَارُ ثَأْقِبٌ وَتَفَكُّرُ

ويقف أبو العتاهية واعظاً الإنسان، فيوصيه بالحذر من الموت، وتوقع نزوله به في كل طرفة عين، ومع كل نفس يتنفّسه، فهو مصيبه لا محالة، وإن تحصّن منه بكلّ الوسائل والأدوات، ويبدو أنه يستمدّد ذلك كله من قوله I: (أَيْتَمَا تَكُونُوا يُذَرِّكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ)⁽⁴⁾، وهو يوصي الإنسان ألا يكون كحاطب الليل، ويتّوجّ ذلك بحكمة بليغة، أعجب بها الناس وحفظوها، وردّدها على مرّ الأيام، فهو يقول⁽⁵⁾:

لَا تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ وَإِنْ تَمَنَّنْتَ بِالْحُجَابِ وَالْحَرَسِ

فَمَا تَزَالُ سِيْهَامُ الْمَوْتِ نَافِذَةً فِي جَنْبٍ مُّدْرِعٍ مِنْهَا وَمُتَرِّسٍ

أَرَاكَ لَسْتَ بِوَقَافٍ وَلَا حَذِيرٍ كَالْحَاطِطِ الْحَاطِطِ الْأَعْوَادِ فِي الْعَلَسِ

(1) انظر: المصدر نفسه: ص 39-41-46-132-163-180-181.

(2) انظر: أبو العتاهية، لجورج غريب: ص 262 وما بعدها، ولأسامة عانوتي: ص 137 وما بعدها، ولخليل شرف الدين: ص 108 وما بعدها.

(3) أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، الديوان: ص 170.

(4) سورة النساء: الآية 78.

(5) أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، الديوان: ص 194.

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْكَ مَسَالِكَهَا
إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبْسِ

ويرى أبو العتاهية أن الموت علة العلل التي لا علاج لها⁽¹⁾، وأن كل إنسان سيذوق طعمه مكرهاً⁽²⁾، مهما طال عمره، وامتد به الزمن⁽³⁾، وسيصير إلى القبر الذي هو سجن شديد، ليس كمثل سجن على الإطلاق⁽⁴⁾؛ ولذلك فإنه ينصح الإنسان بعدم الانخداع في الدنيا، وألا يكون ألعوبة بيدها تلعب به وتخدعه، كما لعبت بمن قبله من الأقوام وخدعتهم⁽⁵⁾. وفي ختام الحديث عن الحياة والموت عند أبي العتاهية يمكن أن أقول: إن قضية (الحياة والموت) تجسدت في إحساس أبي العتاهية تجسداً قوياً، فقد أحس بزوال الحياة، وأيقن بغدر الأيام والزمان، وأدرك أن الدنيا دار هموم وأحزان، لا تحمل في طياتها سوى الآلام والشور والمتاعب؛ ولذلك فقد دعا إلى عدم الغرور بها، ومواجهتها بالصبر، والالتجاء إلى الله Y، بينما كان الموت شبحاً ماثلاً بين عينيه، يخيفه في كل طرفة عين، ومع كل نفس يتنفسه، إذ كان يرى فيه خراباً للديار، وزوالاً لكل معالم الحياة؛ ولذلك خلص من تجربته مع هذه الشائبة الخطيرة إلى الكثير من الحكم البليغة، وجعل من نفسه واعظاً ومرشداً للناس أجمعين، ويبدو لي أنه كان مقتنعاً بهذه الأفكار التي قدّمها في أشعاره الزاهدة اقتناعاً تاماً، ولم يكن منافقاً في ذلك، وصحيح أنه ورد على لسانه قوله⁽⁶⁾:

لَعَنَرُ أَبِي إِنَّ الْحَيَاةَ لَحُلُوءٌ وَلَلْمَوْتُ كَأَشْيَأُ لَهَا مَا أَمْرَهَا!

ولكن ذلك لا يعني أنه كان متعلقاً بملذات الحياة، يعبّ منها عباً، ويحرص عليها حرصاً شديداً، على نحو ما رأى بعض الباحثين⁽⁷⁾، بل ربما كان حديثه عن الحياة والموت بكل تفاصيله يمثل رؤيته الحقيقية لهذه الشائبة الكبيرة، التي أقلقت كثيراً من الفلاسفة والمفكرين على مرّ العصور.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

(أ)

2. أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، الديوان، تحقيق: د.شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ-1965م.

3. أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي، أسامة عانوتي، منشورات المكتبة الأهلية، ط1، بيروت: 1962م.

4. أبو العتاهية في زهدياته، جورج غريب، دار الثقافة، ط1، بيروت: 1985م.

(1) انظر: المصدر نفسه: ص208.

(2) انظر: المصدر نفسه: ص220.

(3) انظر: المصدر نفسه: ص322.

(4) انظر: المصدر نفسه: ص368.

(5) انظر: المصدر نفسه: ص346.

(6) المصدر السابق: ص184.

(7) انظر: أبو العتاهية في زهدياته: ص 87 وما بعدها - وأبو العتاهية من الرفض إلى القبول: ص164 وما بعدها - وأبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي: ص 150 وما بعدها.

5. أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت: 1987م.

(ب)

6. بين الحياة والموت، كامل الشناوي، دار المعارف بمصر، د.ت.

(ت)

7. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، القدس للتجارة، القاهرة: 2008م.

8. التفسير النفسي للأدب، د.عز الدين إسماعيل، دار العودة، دار الثقافة، بيروت: د.ت.

(خ)

9. الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر- والتوزيع، تونس: 1975م.

(د)

10. ديوان سقط الزند، لأبي العلاء المعري، تحقيق: د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، ط1، بيروت: 1998م.

11. ديوان الشافعي، تحقيق: يوسف علي بديوي، مكتبة دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، دمشق: 2000م.

12. ديوان الطغرائي، تحقيق: علي جواد الطاهر، وديجي الجبوري، دار القلم، ط2، الكويت: 1983م.

(ش)

13. الشعر والزمن، جلال الخياط، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، سلسلة الكتب الحديثة (88)، بغداد: 1975م.

(ق)

14. قراءة جديدة لشعرنا القديم، صلاح عبد الصبور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة: 1968م.

15. القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين، ثريا عبد الفتاح ملحس، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت: د.ت.

(ك)

16. كشف النقاب عن لغز الحياة والموت، سيلفي دانيال بيدو، ترجمة: نويل عبد الأحد، مراجعة: عيسى- بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت: 2004م.

(م)

17. مشكلة الفلسفة، د.زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة: د.ت، سلسلة مشكلات فلسفية (4).

18. معنى الحياة والموت، ريتشارد شتاينباخ، ترجمة: هدى موسى، دار الحوار للنشر- والتوزيع، ط1، سورية، اللاذقية: 1990م.

(ن)

19. نظرية الأدب، رينيه ولك، وأوستن وارين، ترجمة: محيي الدين صبحي، ومراجعة: د.حسام الخطيب، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق: د.ت.

(هـ)

20. هامش الحياة .. هامش الموت، غسان كامل ونوس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1991م.

الأطروحات الجامعية

21. الحياة والموت في الشعر الجاهلي، لمصطفى عبد اللطيف جياووك، رسالة ماجستير في جامعة الإسكندرية، عام 1968م.

22. الحياة والموت في شعر صدر الإسلام، خليل عبد العال، إشراف: د. فاطمة تجور، رسالة ماجستير في جامعة دمشق عام 2010م.

23. الحياة والموت في شعر الشريف الرضي، منيف أحمد حميدوش، رسالة ماجستير في الجامعة اللبنانية عام 2004م.